

فضل المدنية العربية

على المدنية الغربيت

للدكتور فيليب حتى

أستاذ التاريخ بجامعة برنجهتون بالولايات المتحدة

خلاصة موجزة لسبع محاضرات ألقاها الأستاذ باللغة الإنجليزية

في جامعة سان باولو

٥ - نهوض الشعوب العربية الحديثة

العالم العربي قطعة متصلة تمتد من مراکش على الأندلس إلى العراق على خليج فارس شرقاً تجتمعها اللغة والثقافة . وهي تتألف من وحدات أربع : إفريقية الشمالية ، مصر ، الجزيرة العربية ، والحلال الخصيب

فأفريقيا الشمالية هي من حيث الجغرافية جزء من القارة الإفريقية، ومن حيث الثقافة والتاريخ جزء من الشرق الأدنى . وهي تتميز عن غيرها من الوحدات العربية بقرنها من أوروبا وبمدها عن قلب الإسلام وقلة الدم العربي في سكانها وكثرة المستعمرين الأوربيين المستوطنين فيها مما جعلها تسير في طريق لهنها . وهذه الوحدة الإفريقية هي الأولى التي وقعت تحت النفوذ الأوربي السياسي وانفصلت عن جاراتها المسلمات . فالروح القومية العربية الآن لم تبلغم فيها حداً طالياً

وكانت الجزائر أول بقعة فيها احتلتها الأوربيون وهم الفرنسيون وذلك عام ١٨٣٠ . وتبعها تونس التي احتلتها الفرنسيون عام ١٨٨١ . أما مراکش فتنازلها الفرنسيون والإسبان في بداية القرن العشرين ؛ وبقية طرابلس الغرب في حوزة الأتراك العثمانيين إلى عام ١٩١٢ عندما احتلتها الطاليلان وأطلقوا عليها الاسم الروماني القديم ليبيا . وستكون ليبيا أول بلاد من هذه الوحدة تتحرر وتستقل بفضل قرار من الأمم المتحدة يقضى بذلك في أول كانون الثاني من عام ١٩٥٢

ومصر من حيث الجيولوجيا والجغرافيا جزء من إفريقية

ومن حيث التاريخ والثقافة جزء من آسيا الغربية . فمصر مصر في كل أوارها كان مرتبطاً بالبلدان في شرقها لا في غربها . وهي باعتبار سكانها (٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠) وخصب أرضها وغنى أنبائها في مقدمة الدول العربية وتطمح إلى الزعامة بينها . وكان الإنكليز قد احتلوا مصر عام ١٨٨٢ واسكنها نالت استقلالها الناجز سنة ١٩٣٦

والجزيرة العربية تمتاز باحتوائها الأماكن المقدسة ، مكة والمدينة . وهي بداعي ثقافتها الدينية وجغرافية أرضها تمش عيشة منفردة انعزالية غير متأثرة بالعوامل الخارجية . لذلك انكسرت موجة التأثير الغربي الأوربي بما فيها من قومية وعلمانية ونزعات عصرية حديثة ، على شواطئ الجزيرة دون أن تحدث فيها هياجاً ملحوظاً . وفي أوائل الثلاثين من هذا القرن اكتشف الأمريكيون في شمالها - في البلاد السعودية - مادن غنية للزيت . واسكن أثر الشركة الأمريكية يكاد يقتصر على بقعة محاذية للخليج الفارسي . وفيما سوى المملكة السعودية فهناك مملكة اليمن المستقلة وهذه أيضاً منصفة بالمحافظة على القديم وعدم الإجابة لدواعي المدنية المصرية الحديثة

والحلال الخصيب يتألف من سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق . ولقد كانت سورية ولبنان إلى نهاية الحرب العالمية الثانية تحت الانتداب الفرنسي ولكنهما اليوم جمهوريتان مستقلتان . وكانت فلسطين وما وراء الأردن والعراق تحت الانتداب الإنكليزي . ومقاومة الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان نشط الروح القومية الوطنية ؛ كما أن مقاومة الانتداب الإنكليزي في سائر بلدان الحلال الخصيب ومقاومة الصهيونية نشط الروح القومية فيها . ولقد كان تقدم العراق السياسي من الانتداب في عام ١٩١٨ إلى الملكية عام ١٩٢٦ إلى الاستقلال والانضمام إلى جامعة الأمم عام ١٩٣٢ أمراً مذكوراً . والعراق اليوم مثل مصر حكومته ملكية دستورية

وعليه ترى أن الأمم العربية في غربى آسيا التي كانت حتى الحرب العالمية الأولى خاضعة للحكم العثماني قد فازت بين الحربين العالميتين باستقلالها وأخذت تسير في قافلة الأمم المصرية الديمقراطية الناهضة

اليقظة الأدبية . وتولدت في أفكار القوم الروح القومية بما فيها من الرغبة في التخلص من الحكم التركي وتقرير المصير والاستقلال السياسي

وكان رواد هذه النهضة معظمهم من أبناء لبنان المسيحيين ومن خريجي المدارس الأميركية الذين وجدوا في مصر مجالاً أوسع للعمل

فأساس النهضة العربية الحديثة إذن أدبي على . وعلى ذلك الأساس تشيدت دعائم الوطنية والقومية العربية . وكل ذلك - بتأثير الموجة الغربية التي نقلت إلى المشرق أفكاراً علمانية واقتصادية واجتماعية وسياسية جديدة . وكان من أهم الأفكار السياسية فكرة الديمقراطية وتقرير المصير

ولم تكن الروح القومية العربية في بادئ أمرها من النوع الإقليمي بل من النوع الشامل . كان أساسها اللغة والثقافة لا الدين ، وكانت ترمي إلى جمع المسلم والمسيحي المصري والسوري واللبناني على صعيد واحد هو الصعيد الأدبي

٧ - نشوء القومية والفوز والاستقلال

كانت البلدان العربية الآسيوية حتى الحرب العالمية الأولى وحدة مفردة تخضع للحكم العثماني . على أن تلك الحرب كان من نتائجها تفكك عرى الإمبراطورية العثمانية وساخ البلدان العربية وتجزئتها إلى وحدات متعددة مما آل إلى تجزؤ القومية العربية البدائية

فصر بعد أن احتلها الإنجليز عام ١٨٨٢ صار معها الأول التخلص من ذلك الاحتلال . فأصبح لها مشكل خاص بها . وبفضل ذلك أخذت القومية فيها تصطبغ بصبغة حماية موضعية وانفصلت عن القومية العربية الشاملة . يومئذ اكتشف المصري أنه مصري واتخذ شعاره « مصر المصريين » . وفي عام ١٩٣١ نالت مصر استقلالها بعد أن أمضت مع إنكلترا معاهدة امشرين سنة تحول الإنكليز حق استعمال الرافق وطرق المواصلات المصرية في أيام الحرب وإبقاء حماية بريطانية على ترعة السويس كذلك سورية ولبنان بفضل مقاومتهما للانقلاب الفرنسي الذي أصبح مشكلهما الخاص بهما افترقنا عن بقية البلدان

٦ - أثر الغرب الحديث في البلدان العربية

ظلت البلدان العربية رازحة تحت الحكم العثماني أربعة قرون (١٥١٦ - ١٩١٨) كانت بمثابة القرون المظلمة في تاريخها الطويل . عاش أبناء العربية في هذه القرون محافظين على القديم مقيدين بالتقاليد لا يشعرون بشئ من التقدم الأوربي ولا يشعرون به . فكان الجلود أهم ميزة لدينتهم

وجاءت حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٧ بمثابة الهزة الأولى التي أيقظتهم من سباتهم . وكان نابليون قد جاء بعطية عربية من رومة فأقامها في القاهرة وأنشأ معها أكاديمية الآداب والعلوم ومكتبة . فكانت هذه العطية أول عطية في وادي النيل . وعقب نابليون في حكم البلاد محمد علي فأرسل اليه مئات الطلبة والحربية إلى البلدان الأوربية ولاسيما فرنسا وإيطاليا، ولم يكتب بذلك بل استدعى من أوربا إلى بلاده ضباطاً وأساتذة وأطباء ومهندسين ، وأسس في القاهرة مدرسة طبية وأخرى هندسية . وكان يحلم محمد علي بتشيد إمبراطورية عربية يكون هو على رأسها

وأثر الغرب الذي بدأ في مصر ما ايث أن امتد إلى سورية ولبنان وذلك في عهد إبراهيم باشا ابن محمد علي في العقد الرابع من القرن التاسع عشر (١٨٣١ - ٤٠) فأخذت الرسائل التبشيرية من كاثوليكية وبروتستانية تشيد المدارس والكنائس . فالأمريكيون أسسوا في بيروت عام ١٨٣٤ الطبعة التي لم تزل تعمل باسمهم . وفي عام ١٨٦٦ بنوا الجامعة الأميركية . وعلى الأثر شيد البسويون الفرنسيون مطبعتهم التي لم تزل في مقدمة مطابع الشرق وجامعتهم المعروفة في بيروت . وما ايث أبناء لبنان وسورية أن أقاموا المطابع والمدارس والكتابات والجمعيات العلمية والأدبية على منوال المنشآت الغربية . وعقب عصر الترجمة من الإنكليزية والفرنسية عصر الإبداع والاستنباط في الأدب والعلم والفن

وكان من نتائج النهضة الأدبية أن تولد الوعي القومي بين أبناء العربية وذلك بعد أن أدركوا بفضل هذه المدارس شيئاً من طغيانهم الجهد وتاريخهم المله بالفاخر . فاليقظة السياسية عقب

فانفة في صحارى هاته البلاد حدثاً تاريخياً هاماً إذ بواسطته فتحت
بعض أطراف البلاد أبوابها لقبول العوامل العمرانية الغربية
الحديثة . ولشركة الزيت الأميركية التي نالت امتياز الاستئجار
عام ١٩٣٣ الفضل في جعل دخل المملكة العربية السعودية أعظم
دخل لبلاد عربية في العالم

وفيما سوى هذه المملكة فهناك مملكة اليمن في الجنوب التي
لا تزال حكومتها ثبوقراطية وأبناؤها بعيدون عن المؤثرات
الخارجية المصرية من علمية وفنية وعلمانية . فالين لا تزال
محافظة على القديم بعيدة عن مجارى العمران التقدمى الحديث

إن كانت الحرب العالمية الأولى نتج عنها تقسيم البلدان
العربية وتجزئتها وتوليد قوهيات وطنية فيها فالحرب الثانية جاءت
نتائجها عكس ذلك . شمر أبناء العربية أن مصالحهم الاقتصادية
والسياسية تقضى بجمع كلمهم وتوحيد أهدافهم فالوا إلى التعاضد
والتعاون والوقوف المجد في وجه المدو الخارحي . وكان من
نتيجة ذلك تأليف جامعة الدول العربية وقوامها مصر وسورية
واليمن والأردن والدراني والبلاد العربية السعودية واليمن .
وللجامعة دستور يكفل لكل دولة فيها الاستقلال التام ويقضى
بحل المشاكل بين الأعضاء إذا كان ثمة مشاكل بطرق سلمية
ويقضى التضامن على دفع الاعتداء من الخارج . وللجامعة لجنة
سياسية وثانية اقتصادية وثالثة ثقافية . ومع رغبة الجزائر
ومراكش وتونس في الانضمام إلى عضويتها فالاستور لا يميز
ذلك إلى أن تحقق كل واحدة من هذه البلدان استقلالها
الداخلي التام

ومع أن الجامعة نالها شئ من الكسوف بداعي العضلة
الصهيونية التي تولدت منها إسرائيل فهي الآن تحدد حياتها
وتسمى للعمل الصالح الشامل . وعلى نسبة ازدياد شأن هذه
المنظمة في الشؤون الدولية تزداد قيمة الأعضاء فيها

فيليب مني

العربية وتولدت فيها روح إنليمية خاصة . وكان أبناء سورية
ولبنان يشكون من عدم اعتبار فرنسا القوميين ومن فرض اللغة
الفرنسية عليهم ومن تقسيم البلاد السورية إلى ولايات والسماح
لتركيا باحتلال سنجق ه تاي . فقائمة الانتداب جاءت بمثابة
سمن يشهد عليه القوميون سيوف وطنيتهم إلى أن أعلن لبنان
جمهورية مستقلة وكذلك سورية وذلك عام ١٩٤٥ . وكان لبنان
في السكتير من أحقابه ولا سيما في العهد العثماني يتمتع بمقدار
مختلف من الحكم الذاتي

أما مشكلة فلسطين التي وقعت تحت الانتداب الإنكليزي
فما زاد عرفته حشر الصهيونية فيه . وهي الحركة الأجنبية التي
اعتبرها العرب بكلمتهم حركة اعتداء وظلم . فالجهاد ضد بريطانيا
والصهيونية نتج عنه روح فلسطينية محمية . وبعد أن ظمرت
إسرائيل (١٩٤٨) ضم الملك عبد الله ما تبقى من فلسطين إلى
مملكته وبذلك زالت فلسطين من الوجود

وكان الملك عبد الله قد بدأ حياته السياسية الهامة أميراً على
ما وراء الأردن وذلك عام ١٩٢٢ بعد أن طرد الفرنسيون أخاه
فيصل من عرش سورية المحدث

يبدأ سياسة الانتداب الإنكليزي في العراق جاءت من
الطراز المستعير التناهل ، ففي عام ١٩٢١ بعد أن فشل الأمير
فيصل في محاولته الملكية في دمشق نصبه الإنكليز ملكاً على
العراق . وفي عام ١٩٣٠ تخلى الانتداب البريطاني عن كل
حقوقه في هذه البلاد واعترف بالعراق ببلاداً مسقلة . فالعراق
سبقت شقيقتها سورية في ميدان التطور السياسي مع أن سورية
كانت تسبقها في التقدم العمراني والثقافي

والمملكة العربية السعودية هي من صنع ملكها الحالي
عبد العزيز بن سعود الذي شيد لنفسه مملكة جديدة منتشرة من
الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر ومنطوية على معظم الجزيرة
العربية الشمالية والدرسة . وهو الذي طرد الملك حسين والده
عبد الله وفصل من الحجاز . وجاء اكتشاف الزيت بنزارة